

# آخر الحارة

عن رحيل الأستاذ... د. رؤوف عباس

29 يونيو 2008

طوال سنوات الدراسة الجامعية وما بعدها، قابلت وشاهدت أستاذة أكاديميين.. من بين كل هؤلاء كان د. رؤوف عباس أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة القاهرة هو وحده من شعرت تجاهه بأنه أحد أفراد عائلتي..، كنت أتفهم مواقفه وتاريخه بشدة، لأنني وجدت مثلها في سير أفراد عائلتي المتواضعة، أزعم أنني كنت الأكثر تفهما لشخصيته من بين زملائي، لم اشعر يوما في مجلسه أو في حلقة الدراسة بغربة.. رغم رصانة كلماته، وجديته الشديدة التي قد تصل إلى الخشونة في بعض المواقف

\*\*

كنت ضمن آخر دفعة درست على يد د. رؤوف عباس في الدراسات التمهيدية بجامعة القاهرة، كان مخصص له يوم واحد فقط في الأسبوع كي يزور الجامعة التي غضبت عليه وحصرت مهامه في هذه الزيارة الأسبوعية لتدريس طلبة التمهيد، كان يشعر بإحباط تجاه مستوى الطلبة، وهو ما أتاح لنا مساحة للحديث في مجالات أخرى أراد من خلالها تأسيس الإنسان قبل تخريج الطالب

\*\*

كانت نغد إليه في هذا اليوم زيارات من زملائه وطلبته وغيرهم من الباحثين الراغبين في الإفادة من خبرته، أتذكر زيارات د. أحمد ثابت أستاذ العلوم السياسية، وطلبة الماجستير والدكتوراه، وصديقه د. عباده كحيله الرجل الذي قدم لي منذ سنوات عديدة وجبة راقية من التاريخ الأندلسي، عدا هؤلاء كنا نحن أثقل ضيوفه في هذا اليوم

\*\*

الآن.. أتذكر وأتعجب كيف تحمل د. رؤوف على غير العادة بعض آرائه الحادة، وتعليقاتي المتمردة المحبطة تجاه الأكاديميين.. أتذكر في إحدى المرات في داخل مكتبه بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، أنني أخبرته أن مستوى الدراسة في جامعة عين شمس أفضل من مستوى طلبة جامعة القاهرة، وذكرت له الأسباب.. كانت عبارة وقحة مني ذكرتها لأستاذ في جامعة القاهرة، وأنا أعلم أن هناك عداة تاريخيا بين الجامعتين أشبه بعلاقة الأهلي بالمالك.. لم يغضب أو يتعصب كبعض الأكاديميين الآخرين، بل كان ذلك مجالا واسعا لحديث عن تجربته في رئاسة القسم ومحاولة تغيير نمط الدراسات التاريخية الغبي في الجامعة المصرية، لكن وقف الكثيرون ضد اقتراحاته، وانتصر مشروع التلميذ الخائب على محاولات الدكتور المتمرد لتأسيس الطالب واسع المعرفة قلب دفة الحديث في البداية إلى الفكاهة، متعاطفا مع جامعة عين شمس التي تخرج هو منها أيضا

- أنت خريج عين شمس؟؟

- أيوه يا دكتور.. أنا شمساوي

- أنت دسيسة بقي

- أنا عميل مزدوج، جاي في مهمة تخريبية إلى جامعة القاهرة

كان باستطاعته أن يوجد جو هزاز حين يريد، وأن يقلب الدفة على المتناول في ثوان حين يجد أن أمامه شخص تافه لا يقدر التبسط.. كان يذكرني بوالدي في هذا الأمر تحديدا

\*\*

كان أحد وساوس د. رؤوف رحمه الله يدور حول فكرة النزاهة.. كان يعلم أن لدى طلبته الكثير من المعلومات عن فساد بعض الأساتذة.. هو أخبرني أنه سمع من طلابه العديد من المآسي، فكان حبه للنزاهة أحد أسباب كشفه الكثير من معاييب الوسط الأكاديمي في كتابه الشهير - مشيناها خطي - وهو الكتاب الذي أثار عليه عاصفة من انتقادات أهل الركود والخمول والفساد والمزاجية في العمل، رُفعت عليه دعاوى قضائية بسبب هذا الكتاب، وبعيدا عما سطره في مذكراته فقد كانت آراؤه الصريحة وانتقاداته المباشرة سببا في انقلاب بعض تلامذته عليه وانعزالهم عنه، وهو من أخذ بأيدي بعضهم إلى الوسط الأكاديمي وجامعة القاهرة تحديدا

\*\*

كانت مذكراته هي مذكرات رجل أعانه الله على دخول الحياة الأكاديمية فعاش في داخلها وكأنه خارجها، من يقرأ هذه المذكرات قد يشعر أنه أمام رجل مثير للمتابع Trouble Maker هذا الملمح هو ما جعلني أشعر أن د. رؤوف واحد منا.. من فئة تقايل المجتمع وحدها، فئة خارج الفئات.. هذا ما جعلني أقول لنفسي.. أخيرا وجدت الأستاذ الوالد المرشد المعلم

لكن شاء الله ألا يتم الأمر، بعد مرضه الأخير

\*\*

كنت أشعر في كل مرة أجلس فيها إلى الدكتور رؤوف أنه يبحث بيننا عن أمل، عن طالب نابه يؤكد له أن طلبية الدراسات العليا ليسوا مجرد عاطلين يقضون وقتهم في الجامعة، وليسوا عوانس يقضون وقتهم في البحث عن عريس.. وان هناك من جاءوا للعلم والبحث عن الأستاذ، شعرت هذا في إشارات ومحاولاته تحفيزنا على المناقشة في عدة جلسات مع درؤوف في مكتبه بالجمعية التاريخية في العام 2007، كان لديه الكثير والكثير ليحكىه لنا.. ووصلت لي رسالته، كان يهيمه الإنسان قبل المناصب، كان يهيمه الاجتهاد قبل الذكاء الاجتماعي

\*\*

بعد أن أنهيت السنة التمهيديّة.. عانيت من ضغوط في العمل والرزق، وزاد المرتب، وفقدت حريتي وأصبحت أسير مكتب، أي انقطعت علاقتي بكل أدوات البحث، وبدأت أشعر أنه عبث.. خذلت نفسي وخذلت الأستاذ، حين ابتعدت لعدة أشهر في حياة صعبة، وحين عدت كان قد بدأ رحلة مرض

\*\*

أحد العاملين تحت إدارته في الجمعية التاريخية نقل حوارا للدكتور رؤوف مع احد العاملين هناك قال فيه بمرارة المرض: بتيجي الشغل في معاد متأخر، وانا بأجي في ميعادي وعندي سرطان!!؟  
لم أكن أعرف طبيعة مرضه وقتها، حتى أنني في آخر لقاء معه منذ شهرين اقتحمت مكتبه بعفوية وطلبت مناقشته في مقترح قدمته إليه، فأخبرني متحاملا أن موعدنا سيتأخر إلى أن يعود من جلسات العلاج الكيماوي وقتها، وجاء الموعد.. ولم أناقشه، خجلا منه، وإشفاقا عليه من سخف الحديث، وانهى الرجل يومه مبكرا، ومر من امامي بحركة بطيئة، دون أن أجرؤ حتى أن أودعه  
حاول أن يؤدي عمله حتى آخر قدرة لديه.. كانت آثار المرض سببا في ابتعادي، وتأملي لسيرته من بعيد، وحين حاولت زيارته، علمت أن وضعه الصحي متأخر، كان لدي الكثير لأخبره عنه

\*\*

طوال الفترة التي انتهزت فيها كل فرصة لأتحدث معه، تعمدت ألا أقرأ كتابه أو مذكراته مشيناها خطي.. كان لدي أفكار غريبة، كنت أحاول ألا أناقشه من أي طريق  
وللعلم.. الرجل كان قد أهدى كتابه "إلى الشباب.. عساهم يجدون فيه ما يفيد. وإلى الذين يسممون الآبار أمامهم.. لعلهم يتعظون"

في مقر الجمعية التاريخية، وفي مكتبه الذي كان خاويا لأن صاحبه يعاني المرض في المستشفى.. انفجرت أمام الدكتورة نيللي حنا وأخبرتها بأمور كنت أود أن أحكيها للدكتور رؤوف عباس ولم أستطع

\*\*

- كنت أريد أن أخبره.. أنني ولدت في شارع الرافعي.. الذي كانت عزبة هرميس - التي أفرد لها فصلا في مذكراته - امتدادا طبيعيا له، حتى أن شارع مولدي أصبح اسمه الآن شارع عزبة الهرامة، وتلاشى اسم شارع الرافعي

- كنت أريد أن أخبره أنه كان يصف جزءا من حكايات العائلة

- كنت أريد أن أخبره أنه حكى عن شبرا ما كنت أستجدي سماعه من جدتي وكبار العائلة

- كنت أريد أن أخبره عن شخصيات أعرفها أفرد لها مساحات في مذكراته

لكن.... لم أخبره

\*\*

توفى الأستاذ.. بنفس المرض الذي فقدت به أمي، وعمتي، وزوجة خالي، و.... كثيرين، كلهم حين توفاهم الله شعرت بأن الموت كان رحمة لهم، من غربة الحياة أولا، ومتاعب المرض ثانيا  
سيظل الأستاذ الدكتور رؤوف عباس أحد أهم الشخصيات التي قابلتها في حياتي، في سيرته أمل، وفي مواقفه دعوة للاقتداء، أعظم ما تركه الأستاذ.. شهادة حق على مجتمع ينهار، وعلم ينتفع به، وذكرى جميلة لدى تلامذته، وقدوة لمن اختار الطريق الصعب

[http://abdoubasha.blogspot.com/2008\\_06\\_01\\_archive.html](http://abdoubasha.blogspot.com/2008_06_01_archive.html)